

والسياسات الاستعمارية الانكليزية والامبريالية الاميركية بوجه خاص ، ولم
« يحللها نظريا » .

بالمضبط هذا ما أردت : أردت لرؤيتي ان تبقى عالقة في المباشر والعياني
(دون ان اهمل بالطبع النظرية العامة) ، ما دمت لم أقبض على « الاعماق
الخبئية » . ذلك ان المادية التاريخية تعلم ان الصلة بين العياني والمباشر من
جهة والجوهر من جهة اخرى صلة صحيحة . حتى الزيد العائم على السطح
ينبغي ان يفحص قبل ان يرمي (كما يقول لوفيفر) . كما تعلم ان العالم ليس
ابيض أسود ، وان التطورات السياسية هي بالاحرى ميول Tendances تلعب
بها وتحكمها جملة عوامل قد تدفعها في هذا المنحى او تردها الى ذلك ، وان في
السياسة دائما ما هو متحرك وغير متوقع ما دام من الممكن ان يفلت من التحليل
هذا العنصر او ذلك ، هذا العامل او ذلك . وتعلم أيضا ، ما دامت تؤكد على
« التحليل الملموس لموضع ملموس » ، ان السياسات الاستعمارية (وسياسات
الدول الكبرى اجمالا) ليست دوما كلية الوعي ولا كلية القدرة ، وانها تخطيء
وتصيب ، تنجح وتفشل ، كما انها سياسات واقعية تخضع لجملة من القواعد
والمؤثرات والمصالح ، وان عملية صنع القرار السياسي في الدول الحديثة
عملية معقدة نظرا لضخامة الجسم السياسي في هذه الدول ودوره في صنعه
او التأثير عليه .

والواقع ان تأمل النقطة التي بدأ منها الغزو الاستيطاني الصهيوني (وبعده
بلفور) والنقطة التي وصلت اليها سيرورة الانتداب (دولة اسرائيل) ، تدل
بوضوح كيف يمكن للضغوط والصراعات ونسب القوى ان تفعل بالواقع
وتدفعه بعيدا عن السياسة التي قيل انها « نهائية » و « مرسومة سلفا » ، ذلك
ان حجم وعد بلفور جد بسيط وجد صغير اذا قيس بدولة اسرائيل . فلماذا
انزلت بريطانيا (وهنا ، نحن نحاجج اقتراضا فقط) الى مواقع اخرى
تضخمت فيها مكاسب الحركة الصهيونية هذا التضخم الكبير ؟ ترى لو ان
ضغوط وقوى الحركة الصهيونية كانت أضعف فأضعف ، اما كانت مكاسب
البيشوف اقل فأقل ؟ او لو ان ضغوط وقوى الحركة الوطنية الفلسطينية
والعربية كانت اكثر فاعلية ، اما كان باستطاعتها ان تضع نهاية اخرى لوعد
بلفور وتحوله الى قصاصة ورق ، وتفعل باليهود والانكليز ما فعل الاتراك
باليونان والقوى الاستعمارية الفرنسية - الانكليزية بعد الحرب العالمية
الاولى ؟ ولكن ، اين وعي اتاتورك من وعي أمين الحسيني ، اين وعي الحركة
القومية التركية من وعي الحركة القومية العربية ! يكفي ان نطلع على النقد
الذي وجهه عدد من « مفكري » الحركة القومية العربية وقادتها في ذلك الحين
الى اتجاهات اتاتورك الديمقراطية حتى نقبض على أسباب الهزيمة العربية
الطويلة .